الحيلة فى درء الأخطار

للأستاذ محمد أبو بكر ابراهيم

المفتش بالتعليم الثانوى

الحيلة مركبة فى نفوسنا ؛ فهى من نزعات الفطرة البشرية ؛ لان الإنسان لا يفتأ يتخذ من الوسائل ما يعينه على السلامة ، والخلاص من الأذى ، و يبتكر من الحيل — بدافع نفسانى — ما يباعد بينه و بين كل مبغض مكروه ؛ لتطيب له عناصر الحياة ؛ فينعم بما فيها من مشتهيات ولذائذ .

والحياة طباق — تجمع بين السهل والصعب ، والعسر واليسر ، والصحة والمرض ، والفرح والترح . ولا تجئ فيها نعمة إلا بذهاب أخرى ، ولا تمر ريح رخاء إلا تلتها ريح نكباء.

ولكن الإنسان لا يريد أن يواجه منها إلا الجانب الميسور ؛ لأنه بطبيعته يحب اليسر والرخاء ، و يتشوف إلى العافية والسعادة ؛ وهى تأبى إلا أن تموج بالفقر والجوع ، ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات .

طبعت على كدر وأنت تريدها صفوا من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة نار

من هذه الصعاب يتخذ التدابير التى توحى بها مواهبه ، وتتفق مع قدرته وأخلاقه وسلوكه ؛ ليتقى النواحى القاسية التى قد تضر جسمه ، أو تؤذى نفسه أو تودى بثروته ومتاعه.

والناس فى هذه التدابير طبقات متفاوتة فى المهارة ، والدهاء ، والمكر ، والخداع ، والتحايل .

فمنهم من ضلت نفسه فجاءت وسائله لا تتفق مع العرف ، والقوانين الوضعية والإلهية والنظم القائمة المرعية . يرى الغاية مبررة للوسيلة ، سواء أكانت الوسيلة مشروعة أم غير مشروعة : وهذا الفريق من الناس لا يعرف سوى منفعته الشخصية ، وحاجته الوقتية ؛ فتدفعه غرائز الشهوة ، والانتقام ، والتسلط ، والقهر إلى الاستخفاف بالأخلاق والاستهتار بالنظم ؛ كما تدفعه غريزة الخوف إلى الاستخفاء من الناس ، والهرب من السيف والرقابة

فيدبر فى الخفاء أمورا يخالها مجدية ، ويستخدم أساليب يظنها موصلة إلى أغراضه. ولا يزال مسوقا بهذه الغرائز الفطرية التى لم تعدل ولم تهذب حتى يقارب الحيوان فى تصرفه وسلوكه بل يفوقه مكرا وحيلة وخداعا ؛لأنه يسلط من ذكائه شعاعا لا ينير له إلا سبيل الشر فيسلكها آمنا من العقوبة الرادعة . قد ضعف إيمانه بمجتمعه ، ووطنه ، وخالقه ؛ وقوى إيمانه بمصالحه ومطالبه وذات نفسه .

وهذا هو السر فى فشو كثير من أنواع الضلالات الاجتماعية كالغش فى التجارة ، واحتكار السلع والمنتوجات ، والتطفيف فى الكيل والميزان ، والله جل شأنه يقول " ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون،و إذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم " .

و إن هؤلاء القوم — بهذه التدابير الطائشة — يسيئون إلى مجتمعهم فى أوقات الشدة إساءة لا تغتفر ، و يتهزون فرصة الضعف والفقر والجوع والضائقة المالية فيكونون حربا على أمتهم ، وعونا عليها لأعدائها . و ينشرون عدوى الخبث والتدليس ، والكذب والنفاق وسوء المعاملة ؛ فتتلوث بلادهم . وقانا الله شرهم .

ومن الناس من يحتاط فى تدبيراته الحازمة ؛ فيوفق بين ميوله وميول غيره، و يلائم بين حاجاته وحاجات أمته ، ويتخذ شرعة العدل والإنصاف والدين ؛ فيكون سمحا إذا باع أو اشترى ، مضحيا بشىء من ماله إن دعا الداعى للتضحية . يحب للناس ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكرهه لها ، و يشاركهم فى وجدانهم وألمهم ومسغبتهم ونكبتهم . فيختار من الوسائل أصلحها وأقومها ، وأكثرها ملاءمة للقوانين ، وانسجاما مع الأخلاق . فإن نزل البلاء ، واشتد الغلاء ، وكثر المدلسون ، كان عفا نزيها ، ضابطا لنفسه ؛ حاكما لنزعاته وشهواته .

تنصرف نفسه عن متع الحياة ونفائسها وأعلاقها إذا ما غلت أسعارها ، وارتفعت أثمانها ، وعز مطلبها والحصول عليها ؛ فلا يعلق قلبه بها ؛ إذ لا حاجة له فيها . ومن ثم تصبح فى نظره رخيصة تافهة لا وزن لها ولا قيمة .

وهذا العنصر من الناس قليل فى هذه الأيام وفى غير هذه الأيام .

فالحيل من طبائع البشر . ألا ترى أن الكاتب الذى تعوزه القدرة على المعانى الرائعة ، والأخيلة البارعة يحتال بتزويق عبارته ، وزخرفة أساليبه ، وتزيين كتاباته ؛ بألوان المحسنات البديعية الكثيرة من جناس وطباق وسجع وتورية. ويركن إلى تراكم الاستعارات ،

وتزاحم التشبيهات؛ كى يستر ضعفه الفكرى، ويشنف الأسماع برنين ألفاظه، وجرس كلماته، ويصرف الأذهان إلى بريق محسناته ، ولمعان سجعاته . أما الكاتب المقتدر فلا يعنيه من هذه المظاهر إلا ما تيسر منها، وصلح به اللفظ والمعنى من غير تكلف أو شطط . لا يستخدم من المحسنات والاستعارات إلا بمقدار ما يستخدم من الملح فى الطعام .

والمرء الذى يجد الحياة أمامه مرة لا تطاق، وشديدة لا تحتمل ويجد الحياة فى ظلال الخيال حلوة هنيئة — يفر من عالم الحقيقة، بهذه الوسيلة الجميلة ، إلى عالم الأحلام والآمال والأمانى فإذا اشتد به الفقر انتحى ناحية ليخلو لنفسه ، ويناجيها وتناجيه ، ويحادثها وتحادثه فيرى فى عالم الخيال صورا ممتعة طريفة من ألوان الغنى والثراء ، ويتخيلها حقيقة واقعة . ويعيش من أجلها فى أسعد حال ؛ وأهنأ بال .

وهذا تنفيس كريم ، يزيل عن صاحبه كابوس القحط والبؤس ؛ ويطرد عن نفسه آلام العسر والضيق . ويهبه ما شاء من حياة خيالية كلها مال وبنون ، ونعيم ومجون . كالدمعة يرسلها الباكى فتخفف لوعته ، وتفرج كربته .

ومثل هذا من ولى منصبا عظيما وهو لا يحسن القيام عليه فإنه يحتال بشتى الوسائل الخداعة التى يراها ساترة لضعفه وعجزه ؛ فيشتد فى التوافه ، ويعاقب غير المقصرين من مرءوسيه ، ويلتزم الصمت حيث يجب الكلام ، ويختلق الأقاويل والتهم والأباطيل ليخوف بها كل من اتصل به من الناس ، حتى يهاب جانبه ويخشى بطشه ، وحتى يقول عنه الجاهلون : عادل قاس فى عدله ، ومصلح مسرف فى إصلاحه .

كل ذلك ؛ ليدل على الحقيقة غشاء كثيفا ، وليعيش فى صلف وكبرياء ، وفخر وخيلاء؛ وليقضى ما يموج فى صدره من آلاف المطالب من غير أن تعرف حقيقته أو يدرك كنهه وما ينطوى عليه عقله .

والإنسان بحيله قد يموه الباطل سدا للنقص ، ورأبا للصدع ، وقد تنكشف حيلته فتظهر جليته :

إذا اشتبهت دموع فى خدود تبين من بكى ممن تباكى

والإنسان بحيلته رفرف فى الهواء، وغاص فى البحار، واستغل الأثير والبخار والكهرباء، واتخذ من الطبيعة أدواته وآلاته . وجعل للحرب فنونا لا حد لها ولا حصر . وليس للأمم الضعيفة إزاء الحياة العامة الواقعة سوى أن تتخذ هى أيضا من الذرائع والوسائل ما يحميها من جبروت الأمم القوية ، ويعصمها من أخطار الأمم المتحاربة الفتية . وهذا يتطلب منها سياسة ومكرا ودهاء ورأيا .

محمد أبو بكر ابراهيم